أبو حنيفة
بطل الحرية والتسامح فى الإسلام

تأليف الأستاذ عبد الحليم الجندى

عرض وتحليل

الأستاذ سعيد حمدة مكرم المحامى

لا يكاد الأستاذ الجندى يفرغ من مقدمته القصيرة ، حتى يعلن نبأ قدوم (الرجل) !. وإنه ليفعل كما يفعل المذيعون فى استقبال عظماء الرجال . فلا يفوته أن يرصد حركاته ويصورها . لقد : (أقبل السيد فى تؤدة ورزانة ، طويل القامة ، معتدل السمت ، عظيم المهابة ، حسن الطلعة واللحية ، تعلوه سمرة ، وفى وجهه أثر من السجود ، لا يتلفت اذا مشى يمنة أو يسرة ، يضوع المسك من أردانه على القرب وعلى البعد ... عليه بزة فاخرة تباهى بزوق صاحبها فى قماشها وطرازها . . . تعلوه قلنسوة طويلة سوداء . . . إنه النعمان بن ثابت المكنى بأبى حنيفة . . الرجل الذى أعلن الحرية فى كل مكان وفى كل زمان ، فى الماضى والحاضر والمستقبل ، وفى التجارة ، وفى الملك ، وفى التصرفات ، وفى حقوق النساء . وفى حقوق الرعية . .) !!

وبعد أن يحس الأستاذ الجندى أن كلماته المصورة قد حركت قلوب قرائه وعقولهم إلى لقاء هذا الوافد الجليل . يمضى فى استعراض لمحات من حياة (الرجل) لتستوى صورته الجسدية والنفسية أمام قارئه ناطقة الملامح والسمات .

لقد كان أبو حنيفة منذ صباه متوقد الذكاء بادى الالمعية حتى ليناشده الإمام الشعبى أن يختلف إلى العلماء . فلا يليث الفتى أن يقبل على حلقات علماء الكلام . يأخذ عنهم ويجادلهم حتى يحيط بأصول علمهم ومناهجهم ولكنه يحس فى أعماقه نزوعاً ملحاً إلى ميدان آخر أثبت المستقبل أنه أولى الميادين بعبقريته . وفى حلقة أبى إسماعيل حماد بن سليمان يجد ما يطمح إليه فينتظم فى سلك تلاميذه (يحفظ مسائله ويعيدها فى الغداة

فيخطىء الحفاظ ويصيب هو . ويسكت التلاميذ ويسأل هو . ويلح فى الجدل حتى ليحار وجه حماد) .. وحين لحق حماد بالرفيق الأعلى . وانتهت زعامة الحلقة إلى أبى حنيفة (وغدت أعظم حلقة بالمسجد . وأوسعها فى الجواب . وانصرفت وجوه الناس إليه . وأكرمه الحكام والأشراف) لم ينسه كل أولئك فضل أستاذه وذكرياته معه حتى ليقول : (انى لأعود لحماد مع أبوى) !. ولقد أسلف له حماد هذه العاطفة وهذا الود يوم سئل بعد غيبة طويلة عن الكوفة : إلى أى الأشياء كان أشوق قال : (إلى أبى حنيفة ، ولو أمكننى أن لا أرفع الطرف عنه لفعلت) !. .

ولم يقف وفاء أبى حنيفة عند أستاذ يعرف له فضله ، أو قريب يصل رحمه بل (كان جم الوفاء لجيرته وعشيرته) البر منهم والفاجر ! ! ولم يكن بر أبى حنيفة بالناس مجرد مجاملات حانية أو كلمات طيبة ، بل كانت يده أسبق بالخير من كل جوارحه : (ذلك تلميذ يسد خلته ، وتلك امرأة ذات خصاصة ، وهذا فقيه فى أسوأ حال . . إن مال أبى حنيفة إن لم يكن لهؤلاء وأشباههم فلا كان المال . . وإذا أنفق أبو حنيفة على عياله نفقة فليتصدق بمثلها ، وإذا اكتسى ثوباً جديداً ، فليكس بمثل ثمنه الشيوخ والعلماء) .

وما أطرف قصته مع أمه . وما أبلغ دلالتها ! ! أفتاها يوما فى بعض شأنها ، فلم تطمئن إلى فتواه !! وأبت إلا أن تستفتى (زرعة القاص) !! فحملها راضيا إليه . . وحين يستحى زرعة من أن يفتى أم فقيه الكوفة وهو بالكوفة يسر إليه أبو حنيفة أن أفتها بكذا . فيفعل زرعة . ويعود بها أبو حنيفة راضية مطمئنة . وهو أيضا راض مطمئن إلى بره بأمه حتى ولو سفهت رأيه ! ! بل إنه ليحملها أميالا إلى دار عمر بن ذر (ليصليا التراويح خلفه . وليستمعا إلى وعظ ذلك الزاهد الجليل) . . (فأى رقة — كما يقول الأستاذ الجندى — تفيض من هذا القلب الكبير . . وأى دار كتلك الدار يشيع فى أجوائها الزهادة والتبتل والإيمان . وأى ذوق كذلك الذى يتلمس على هذا النحو رضا السيدة التى حملته وأرضعته وقدمته هدية فاخرة للوجود) !!

وبعد أن يفرغ عبد الحليم الجندى من رسم الخطوط السريعة لصورة أبى حنيفة ، يقبل بذوق الفنان ومواهبه على أحداث حياته ، ينتقى من ألوانها ما يجلو ملامح صورته ، وما يعكس على هذه الملامح كثيراً من إصالة الفن وحرارة الحياة : فأبو حنيفة كان (تاجراً صناعته الفكر ومفكراً يعمل بالتجارة) . . وإذا كانت دنياه لم تشغله عن آخرة فإن الآخرة أيضا لم تنسه دنياه (فلم يكن ممن يجلسون إلى

الأرض ويرفعون أكف الضراعة إلى السماء ؛ فإن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ، أو يمدونها إلى الأمراء ؛ فإن مال الأمير ثمن لنفس العالم) . والتجارة عند أبي حنيفة ليست شيئاً تأباه طبيعة العالم ، ما دامت قائمة على الصدق والأمانة والقناعة . (وهكذا دخل السوق مدخلا كريما ، فأضحى فيه من المجددين والمجدودين ؛ اختار لدكانه مكانا من أبرز أمكنة الكوفة ، فى دار ليست هينة على التاريخ ؛ هى دار عمرو بن حريث) . . (وإنك لتتصور الذوق فى ترتيب دكانه بما كان عليه فى خاصة شأنه ؛ حسن هيئة وبزة وتفكير وتعبير . . بل إنك لتكاد رغم بعد هذه القرون والمسافات تتنسم العطر يتأرج من أردانه ، وزوايا دكانه ، وتتصور النساء إذا أقبلن أو أدبرن بائعات أو مشتريات يغضضن من أبصارهن ، ولا يبدين زينتهن ، يدلفن إلى الدكان كأنما يفدن إلى الدرس ، ويفصلن عن دار بن حريث كأنهن يفصلن عن المسجد الجامع ، وكأنما كن من الدكان فى محراب) ! !

بعث إلى شريك حفص بن عبد الرحمن بمتاع فيه ثوب معيب فباعه بثمن كامل ، ويسوء أبا حنيفة هذا الصنيع ويأبى إلا أن يرد إلى الرجل ما غبن فيه ، فلما أعياه البحث أبى مرة أخرى إلا فصالا عن صاحبه والتصدق بثمن هذه البضاعة تحرجا من أن يتطرق إلى ماله حرمة بل شبهة حرمة ! ! وبعد أن تنفض هذه الشركة المبار يقول عنه حفص (جالست أنواع الناس من العلماء والفقهاء والزهاد والنساك وأهل الورع منهم فلم أجد أحداً أجمع لهذه الخصال من أبي حنيفة) .

ولم تستحوذ دار ابن حريث على كل نشاط أبي حنيفة واهتمامه ، وما كان فى وسعها أن تحتضن عبقريته وفى الكوفة مسجدها الجامع أو جامعة الكوفة ؛ فقد كان أبو حنيفة يقضى (فى المسجد) جل أوقاته وأجلها . . (هذه حلقة مسعر بن كدام للقرآن والحديث ، وتلك لابن شبرمه يقضى ويفتى ، وتلك لحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى قاضى الكوفة ، وتلك حلقات أخرى للشعر أو للرواية أو للأدب واللغة ولحفظ القرآن أو لذلك كله مجتمعا) . . . (وكانت إلى حوار تلك الحلق فى جامع الكوفة حلقة أخرى تحف بأبي حنيفة النعمان ، لا يقبل إليها من صومعة أو خلوة . ولكن من سوق الكوفة . أو دار ابن حريث أو من داره . أو من أسفاره . أى من صميم الدنيا) .

ولقد كان لمدرسة أبي حنيفة هذه منهجها وطابعها وتقاليدها . ولعل من أجل سماتها حرية الفكر المكفولة للأستاذ والتلميذ على السواء حتى ليقول عندما يفرغ من بيان

رأيه (رأينا هذا أحسن ما قدرنا عليه فمن جاءنا بأحسن من قولنا فهو أولى بالصواب منا) !! (يريد تلاميذه — كما يقول الجندى — على أن يتعلموا الحرية معه ليكونوا أحرارا مع غيره، فلن يتعلموا الحرية فى التفكير إلا إذا مارسوها فى التعبير، ولن يتعلموها مع الناس إلا إذا تعلموها مع الأستاذ وهو عندهم خير الناس) .. ومع هذا المنهج الحر فى التفكير والبحث لم تكن مدرسة أبى حنيفة متعجلة للغايات على حساب ما ينبغى للبحث العلمى من أناة وصبر وأمانة، فما أكثر ما يطول البحث بهم (فى المسألة الواحدة أياما وليالى أو شهراً أو أكثر من شهر) حتى إذا انتهوا فيها إلى رأى يطمئنون إليه هللوا مستبشرين مكبرين !! (لقد كان وجه العلم لديهم — كما يقول الجندى — هو وجه الله — جل شأن الله — يولون وجوههم شطره فى المحراب أو فى حلقة أبى حنيفة) .

ولقد كان التسامح من أبرز أصول مذهب الإمام (المفكر) : (تسامح بين الإنسان وأخيه الإنسان . وتسامح بين المخلوق والخالق .. ثم حرية فى الآراء والأشياء لايحدها إلا العقل والعدل وعمارة الدنيا) .

ففى العصر الذى كانت تموج فيه البصرة بألوان عجيبة من الأفكار والعقائد والجدل التزم أبو حنيفة جانب القصد والتسامح : فإذا غالى الخوارج فى مسألة الإيمان فقالوا أن لا إيمان لمن لم يعمل ما أمر الله به أو قارف ما نهى الله عنه، واندفعوا يكفرون مرتكب الكبيرة !!

وإذا تريث المعتزلة شيئا ما وقالوا بالمنزلة بين المنزلتين، فلا هو بالمؤمن ولا هو بالكافر بل هو بين بين أو هو فاسق فإن أبا حنيفة لاينحرف إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . بل يلتزم منهجه فيقرر أن (الإيمان تصديق بالقلب وإقرار باللسان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر) أما العمل فشىء آخر غير الإيمان، إن أداه المكلف ففضل من الله ونعمة، وإن لم يفعل ما أمر الله به أو ارتكب ما نهى الله عنه فهو مؤمن مقصر أو مخطىء أو مذنب، إن شاء الله عذبه بذنبه وإن شاء تاب عليه وعفا عنه (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) .

ولئن كانت العلوم من طب وفلك وفلسفة ورياضة ومنطق الخ قد نهلت من منابع غير عربية كالفارسية واليونانية والهندية فلقد كان الفقه ابن بيئته العربية الخالصة (ذلك أن الحضارة الإسلامية كانت تهتف بها غرزتها أن تخلد نفسها، وليست سبيلها إلى ذلك التخليد عمارة أو نحتا أو تصويرا كما صنع الرومان والمصريون واليونان،

فتلك كانت مفاخر دون معجزة الأمة الإسلامية التي يحتويها كتابها من شريعة وعقيدة ، وكان طبيعيا أن تندفع مواهب الأمة الكبرى نحو أول مقومات الإسلام وهو الشريعة .. وبهذا تناهت إلى حلقة الكوفة أصوات الفقهاء السابقين والمعاصرين فرددوها بلسان الزعيم الفكرى الذى قدرته العناية الإلهية لنصرة الدين) .

وكان من الطبيعى أن يفضى هذا التسامح وهذه الحرية إلى الأخذ بالقياس كأصل من أصول الشريعة وكان أبو حنيفة فارس هذا الفتح الفكرى الخطير (لم يتردد عن أن يقول «أرى» ورأيت ، ويحكم على المستقبل ويرفع سماء الفقه على عمد الحرية .)

وإذا كان قد عرف عن بعض خلفاء بنى العباس شطط فى السياسة ربما جنح بهم أحيانا إلى العنف والقسوة فإنهم كانوا مع هذا حريصين على أن يلى القضاء فى دولتهم ذو والعلم والورع وكان طبيعياً أن يطلب ابو جعفر إلى أبى حنيفة حمل أعباء القضاء ويشفق أبو حنيفة من أن ينوء كاهله بهذا العبء الخطير فيعتذر متلطفاً عن قبول المنصب الكبير فيأبى الخليفة مصرا ، وإذا أبو حنيفة هو الآخر يصر على الرفض وتكون أزمة بين عملاقين ، عملاق السياسة ، وعملاق الفقه ، يحلف الخليفة ليفعلن فيحلف أبو حنيفة ألا يفعل !! وإذن فليزج بأبى حنيفة فى السجن ، وليدربه زبانية القصر فى الأسواق ، وليضرب بالسياط على مرأى من الناس ومسمع ثم لتحدد إقامته فى منزله ولا يؤذن فى الجلوس إلى الناس وفتواهم (وهكذا حبس الرجل الذى ظلت الحرية نصف قرن اسماً هو مسماه ، والذى عاش سبعين عاما يصنع الحرية بيده صنعا ، ويخلقها خلقاً فى تلاميذه وتعاليمه) .

وتشاء الأقدار أن تكون هذه الفتنة آخر عهده بالدنيا فما لبث أن انتقل — رضى الله عنه — إلى الرفيق الأعلى !! .

وبعد فقد أحسست عند قراءة كتاب عبد الحليم الجندى عن أبى حنيفة حرارة التعبير الصادق عن النفس إذ تؤمن بموضوع البحث وتحتشد لدرسه وإخراجه ، حتى لتخال بين الرجلين صداقة جليلة .

وإذا كان الدكتور طه حسين قد أهاب به يوما أن (يفرغ لدرس الشافعى كما فرغ لدرس أبى حنيفة) فإننا نطمع منه فى أكثر من ذلك ، نتمنى أن لو وفق عبد الحليم الجندى إلى درس الأئمة الأربعة . فإن قلما — كقلمه — على هذا الثراء فى العربية وعلى هذا التدفق فى الموضوع وحول الموضوع لجدير بأن ينهض — قادرا — بهذه الرسالة الجليلة ؟